

تفسير البحر المحيط

@ 35 @ مُنْتَظِمُونَ { ، قال : يعني يوم بدر . وقال عبد الرحمن : خمس قد مضين : الدخان ، والزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . وقال عبد الرحمن الأعرج : { يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ } ، هو يوم فتح مكة ، لما حجت السماء الغبرة . وفي حديث حذيفة : أول الآيات خروج الدجال ، والدخان ، ونزول عيسى بن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن ؛ وفيه قلت : يا نبي الله ، وما الدخان على هذه الآية : { فَارْزُقْ تَقَرَّبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ } ؟ وذكر بقية الحديث ، واختصرناه بدخان مبين ، أي ظاهر . لا شك أنه دخان { يَغْشَى النَّاسَ } : يشملهم . فإن كان هو الذي رأته قریش ، فالناس خاص بالكفار من أهل مكة ، وقد مضى كما قال ابن مسعود : وإن كان من أشراط الساعة ، أو يوم القيامة ، فالناس عام فيمن أدركه وقت الأشراف ، وعام بالناس يوم القيامة . { هَذَا عَذَابٌ } إلى { مَوْءُودُونَ } في موضع نصب بفعل القول محذوفاً ، وهو في موضع الحال ، أي يقولون . ويجوز أن يكون إخباراً من الله ، كأنه تعجب منه ، كما قال في قصة الذبيح : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ } . .

{ إِنْ زَلَّ مَوْءُودُونَ } : وعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب ، والإيمان واجب ، كشف العذاب أو لم يكشف . { أَنْ زَلَّ لَهُمُ الذِّكْرُ } : أي كيف يذكرون ويتعظون ويقولون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ، وقد جاءهم ما هو أعظم ؟ وأدخل في باب الإدكار من كشف الدخان ؟ وهو ما ظهر على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم (من الآيات والبيانات ، من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا ، وتولوا عنه وبهتوه بأن عدواً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون . وقرأ زر بن حبیش : معلم ، بكسر اللام . { إِنْ زَلَّ كَاشِفُ الْعَذَابِ قَلِيلًا } : إخبار عن إقامة الحجة عليهم ، ومبالغة في الإملاء لهم . ثم أخبر أنهم عائدون إلى الكفر . وقال قتادة : هو توعدهم بمعاد الآخرة : وإن كان الخطاب لقریش حين حل بهم الجذب ، كان ظاهراً ؛ وإن كان الدخان قبل يوم القيامة ، فإذا أتت السماء بالعذاب ، تضرع منافقوهم وكافروهم وقالوا : ربنا اكشف عنا العذاب ، إنا مؤمنون . فيكشف عنهم ، قيل : بعد أربعين يوماً ؛ فحين يكشفه عنهم يرتدون . ويوم البطشة الكبرى على هذا : هو يوم القيامة ، كقوله : { فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى } . وكونه يوم القيامة ، هو قول ابن عباس والحسن وقتادة . وكونه يوم بدر ، هو قول عبد الله وأبي وابن عباس ومجاهد . وانتصب يوم نبطش ، قيل : بذكرهم ، وقيل : بننتقم الدال عليه منتقمون ، وضعف بأنه لا نصب إلا بالفعل ، وقيل : بمننتقمون . ورد بأن

ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها . وقرأ الجمهور : نبطش ، بفتح النون وكسر الطاء ؛ والحسن ، وأبو جعفر : بضمها ؛ والحسن أيضاً ، وأبو رجاء ، وطلحة : بضم النون وكسر الطاء ، بمعنى : نسلط عليهم من يبطش بهم . والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بنبطش ، بل بمقدر ، أي نبطش ذلك المسلط البطشة ، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة ، فينتصب بنبطش .

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبِيلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ } : هذا كالمثال لقريش ، ذكرت قصة من أرسل إليهم موسى عليه السلام ، فكذبوه ، فأهلكهم الله . وقرئ : فتنا ، بتشديد التاء ، للمبالغة في الفعل ، أو التكاثر ، متعلقة { وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ } : أي كريم عند الله وعند المؤمنين ، قاله الفراء ؛ أو كريم في نفسه ، لأن الأنبياء إنما يبعثون من سروات الناس ، قاله أبو سليمان ؛ أو كريم حسن الخلق ، قاله مقاتل . { أَلَمْ تَدْرُوا } إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ { يحتتمل أن تكون أن تفسيرية ، لأنه تقدم ما يدل على معنى القول ، وهو رسول كريم ، وأن تكون أن مخففة من الثقيلة أو الناصبة للمضارع ، فإنها توصل بالأمر . قال ابن عباس : أن أدوا إليّ الطاعة يا عباد الله : أي اتبعوني على ما أدعوكم إليه من الإيمان . وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل ، كم قال : فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . فعلى ابن عباس : عباد الله : منادى ، ومفعول أدوا محذوف ؛ وعلى قول مجاهد ومن ذكر معه : عباد الله : مفعول أدوا . { إِنِّي لَكُم مِّن رَّسُولٍ أَمِينٌ } : أي غير متهم ، قد ائتمنتني الله على وحيه ورسالته . { وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللَّهِ } : أي لا تستكبروا على عبادة الله ، قاله يحيى بن سلام . قال ابن جريح : لا تعظموا على الله . قيل : والفرق بينهما أن التعظيم تناول المقتدر ، والاستكبار ترفع المحتقر ، ذكره الماوردي ، وأن هنا كان السابق في أوجهها الثلاثة . { وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللَّهِ } : أي بحجة واضحة في